أثر الفكر الديني
في المجتمع الرافديني

م. عادل فائق رشيد
الجامعة العراقية – كلية الآداب
قسم التاريخ

ملخص البحث :

كان للفكر الديني الاثر الكبير على المجتمعات الرافدينية القديمة، وعلى الرغم من أن اقدم المحاولات الكتابية في بلاد وادي الرفدين تعود الى منتصف الالف الرابع قبل الميلاد والتي ذكرت اقدم الالهة ألا أننا نجد بأن اقدم الشواهد على أثر الدين في المجتمعات تعود بأصولها الى تلك الأسر الزراعية الاولى التي مارست الزراعة والتدجين خلال العصر الحجري الحديث في حدود ٦٧٥٠ق.م، فضلا عن ذلك نلاحظ أن الفكر الديني كان المحرك الأساسي في نشوء وأبتكار القوانين أذ لا تخلو مقدمة أي شريعة من ذكر الالهة وكيف أن الفضل يعود للأخيرة في تشريع القوانين. قسم البحث على عدة محاور، تمركز المحور الاول حول فكرة خصوبة الارض ودور ما تسمى (الإلهة الأم) في زيادة الخصوبة ووفرة الناتج الزراعي، وجاء المحور الثاني ليؤكد على الالهة ودورها في صياغة القوانين، المحور الثالث عزز فكرة المعبد كونه نواة المدينة ومركزها الروحي وأثره في نشوء المدن، المحور الرابع خصص حول نظرية التفويض الالهي في الحكم وأختيار الالهة من يمثلها على الارض، أما المحور الخامس خصص لفكرة الزواج المقدس وديمومة الربيع فيما خصص المحور السادس لدراسة ممارسة الدفن وعقيدة ما بعد الموت والالهة العالم السفلي، المحور الاخير يناقش ظاهرة تعدد الالهة وما مثلته من ظاهرة عبادة الظواهر الطبيعية.

المقدمة:

مما لا شك فيه، كان للفكر الديني الأثر الكبير في حياة المجتمعات الرافدينية القديمة سواء أكانت سومرية أم أكدية الاصل، وأن علاقة الفكر الديني تعود الى المجتمعات الزراعية الاولى في حقبة العصر الحجري الحديث ونشوء أولى اشكال الالهة التي أرتبطت أرتباطا وثيقا بخصوبة التربة والمعروفة بتماثيل الالهة الام والتي تطورت لاحقا الى الالهة عشتار، كما ويبدو أن مشكلة نفاد خصوبة الارض مثلت مشكلة غذائية مهمة ذات علاقة مباشرة بحياة الانسان ومن هنا نشأت الحاجة لوجود عامل مساعد يقدسه الانسان للحصول على مراده. فضلا عن ذلك أن للفكر الديني أثره الواضح في صياغة أغلب القوانين العراقية القديمة والاصلاحات التي لا تخلو في مقدمتها من ذكر أن الالهة هي التي أوحت للحاكم

القيام بأصلاحاته أو أصدار قوانينه بأمر منها لتنظيم شؤون المدينة وحياة الناس، الامثلة واضحة كما هو الحال في مقدمة شريعة أورنمو الملك السومري ،حاكم سلالة أور الثالثة وكذلك في مقدمة قانون لبت عشتار خامس ملوك سلالة أيسن الامورية وفي الشريعة الشهيرة للملك حمورابي ملك بابل. أدى مركز الالهة ومكان سكناها الدور الكبير في نشوء المدن، ونجد أن المعابد قد ظهرت بعد أنتقال الانسان الى القسم الوسطي من بلاد وادي الرافدين كما هو الحال في مواقع العصر الحجري المعدني في تل الصوان أو في الاقسام الجنوبية من العراق حيث قامت اولى ثقافات الجنوب المعروفة بعصر العبيد، نلاحظ أن المعبد او مكان سكن الالهة قد أحتل مركز المدينة أو القرية بمفهومها الاولي، ليكون مركز الاشعاع الديني والفكري والمسيطر الاقتصادي والحاكم القضائي في المدينة، كانت نشأة المعابد بشكلها الوظيفي بسيطة لم تتعدى تخطيط الغرفة المربعة مع بعض الملحقات كتمثال الاله ودكة القرابين لتتطور فيما بعد الى مباني مشيدة على مصاطب طينية ذات طابع وظيفي يتمثل بحماية جدران المعبد الطينية من خطر المياه ومن ثم تطورت الى شكل جمالي يفرض صفة الهيبة لمسكن الاله والمتمثل بالزقورات، الزقورات أو المعابد العالية كذلك شهدت تطورا كبيرا من الطبقات الثلاث وصولا الى طبقات سبع كما هو الحال في الزقورات الاشورية.

كان يقوم على خدمة هذه المعابد وصيانتها الكهنة الذين تحولوا بمرور الوقت الى ممثلين للالهة على الارض ومثلوا بذلك أول شكل من أشكال الحكم وأتخذوا لقب En الذي يعني الكاهن الحاكم ومن ثم تطور اللقب نفسه مع تطور وتوسع سلطة المدينة وأمتدادها الى أكثر من مدينة كبيرة واحدة ليصبح اللقب أنسي أي الامير بالمعنى السياسي والى الفلاح المستأجر أو وكيل الاله بالمعنى الديني ليصل الى المرحلة الاخيرة من التطور ويصبح لقب الملك لوكال ذو الصبغة السياسية البحتة. فكرة الزواج المقدس وتمثيل دور الالهة هي الاخرى مستقاة من نظرية التفويض الالهي في الحكم، أذ ان الملك الذي يجسد دور الاله تموز في اتصاله مع الالهة عشتار ما هو ألا تأكيد اخر على الدور الالهي المناط بالحاكم وان وظيفته ما هي الا تمثيل حي وتجسيد للالهة على الارض. الفكر الديني كان له أصداء كبيرة في ممارسة الدفن على مدى حياة الانسان على الارض ولعل من اقدم الامثلة على المدافن ذات الطابع العقائدي تعود الى العصر الحجري القديم في كهف شانيدار أو ما يعرف بمدفن الزهور ومن ثم توالت وتطورت فكرة الحياة ما بعد الموت فلذلك نرى وجود ما يسمى أو يصطلح عليه اثاريا بالهدايا الجنائزية وهي عبارة عن الادوات والالات وما يستخدمه الانسان في حياة ما بعد الموت والتي تعدت أحيانا الى ما لا يحتاج كأدوات الزينة والحلي الذهبية كما هو في حالة المدافن الملكية في مدينة أور أو تلك القبور الملكية في مدينة نمرود الاشورية. كما وكان لتعدد الظواهر الكونية والاجرام السماوية الى كان لها اثر

واضح على حياة الانسان، نجد ان الانسان القديم قد قدس الشمس والقمر والكواكب وكذلك قدس الظواهر الطبيعية الاخرى كالهواء والرعد والمطر والخصوبة والحرب والحكمة والقلم، فمن هنا كان العدد الكبير للالهة العراقية القديمة والتي يمكن ان نطلق عليها الصفة الحيوية. يتضح من اعلاه أن الفكر الديني كان المحرك الاساسي لحياة المجتمعات الرافدينية القديمة وان الدين متغلغل في كل مفاصل الحياة، بل وتعدى ذلك الى الادب الرافديني القديم فنرى أن الهة تميزت بالحكمة وهي التي علمت الانسان ويعود الفضل اليها في تعليمه الحرف والصناعات وفنون الحضارة وأن الانسان لم يكن له وجود أذ أن مسألة خلقه ذاتها تعود الى الالهة التي امتزجت صفاتها مع الصفات البشرية البحتة كالحب والكره والمكائد.

المحور الاول: الفكر الديني وأثره في خصوبة الأرض:-

على الرغم من ظهور أولى العلامات الكتابية في منتصف الاف الرابع قبل الميلاد في مدينة الوركاء السومرية ومن ثم تطورها الى وثائق كتابية وثقت أقدم الاساطير الدينية لمجمع الالهة العراقية القديمة وصفات تلك الالهة، الا أن أقدم الشواهد عن أثر الدين في عادات وعقائد الانسان القديم تعود الى فترات موغلة في القدم، خاصة تلك التي تعود الى العصر الحجري الحديث والتي تزامنت مع الثورة الزراعية وتبدل ركائز الحياة الاقتصادية لأنسان العصر الحجري بعد تحوله أو تقليل اعتماده على مرحلة الجمع والألتقاط الى الزراعة الديمية التي أمنت للإنسان مصدرا ،لعله، أكثر أستقرارا للحصول على الغذاء.

كان لتبدل المناخ في أواخر عصر البلايستوسين في أعقاب اخر عصر جليدي[1] الاثر الكبير في نشوء أولى الحضارات ذات الطابع الزراعي وأن حلول فترة الجفاف العامة الاخيرة على معظم أجزاء الشرق الادنى القديم جعلت من الصعب على الانسان أن يعتمد كليا في قوته على مرحلة الجمع والالتقاط وهي المرحلة الاقتصادية التي كانت سائدة في العصر الحجري القديم، لذلك كان أهتداء الانسان للزراعة وأنتاج قوته بيديه وكذلك تدجين الحيوانات وأستئناسها، كان أعتماد الانسان في زراعته كليا على الامطار والتي كانت كافية للزراعة المحدودة حتى من بعد عصر الجفاف الذي كان تدريجيا الى أن اشتد وتعذرت معه الزراعة الديمية الامر الذي دفع الكثير من الفلاحين الى الانتقال من أرضهم الى أراضي ومناطق جديدة تصلح لحياتهم الزراعية[2]. أدى الاستقرار السكاني بعد الاعتماد على الزراعة وتدجين الحيوانات الى زيادة في عدد السكان وتغير النسيج الاجتماعي، فبعد أن كانت مجتمعات الصيادين المتنقلين في سعيهم للحصول على ما يمكن التقاطه من ثمار النباتات الطبيعية وصيد الحيوان، نلاحظ أن مجموعات الصيادين خلال العصرين الحجريين الوسيط والحديث في المرحلة التي سبقت معرفتهم الزراعة عاشوا في تجمعات قد تخلو أحيانا من وجود المرأة، ذلك بسبب، ان وجود النساء ومعهم اطفالهم ربما يعيق حركة الصيادين السريعة والذين

يقطعون المسافات البعيدة يوميا من اجل الحصول على الطرائد، هذا ما نراه في وقتنا الحاضر عند مجتمعات الصيادين في أفريقيا خاصة عند قبائل (السان أو البوشمن) في صحراء كالهاري حيث ان المراة لدى هذه القبائل تقوم بأرضاع وليدها لمدة اربع سنوات الامر الذي له أثر في الحد من خصوبتهن لفترة طويلة ومن ثم تقليل عدد الاطفال الذين يحتاجون للمصاحبة والاعتناء الكبير وللأخذ باليد أثناء التنقل السريع للصيادين ومن ثم تقليل اعداد الاطفال المصاحبين للمجموعة الذين حتما كانوا سيؤثرون على سرعة وحركة الرجال الصيادين، وقد كان المتنقلون المقتاتون hunter-gatherers مقيدين بشكل كبير بحجم المجموعة، ليس فقط بسبب محدودية المصادر المتوفرة ولكن أيضا بسبب صعوبة نقل الاطفال الذين بقوا غير نافعين كليا لفترة أطول حتى من صغار الثدييات الاخرى[٣].

أدت زراعة المحاصيل الغذائية وتدجين الحيوان وأستقرار الجماعات البشرية قرب الاراضي التي زرعوها الى زيادة كبيرة في عدد السكان، نجد الحسابات هنا قد اختلفت كليا بالنسبة للمزارعين الذين يحتاجون دوما لليد العاملة في الحقول الأمر الذي جعل من العائلات الكبيرة امرا عمليا وظهور ما يمكن تسميته بالاسر الزراعية المنتجة[٤]، لعل من أوضح تلك الامثلة في موقع جرمو (شرقي كركوك) والذي يعود الى حدود الاف السابع ق.م، المشكلة التي رافقت الزيادة السكانية والاعتماد المتزايد على المحاصيل كانت ، وربما، لاتزال هي مشكلة نفاد الخصوبة، وكانت الخصوبة والتكاثر ذات أهمية قصوى بالنسبة للمجتمع انذاك وأصبحت المحور الرئيس في المعتقدات الدينية في العصر الحجري الحديث، حيث عثر على بعض الدمى من الطين والتي غالبا ما كانت غير مفخورة تمثل الألهة الأم أقدم معبود للبشر والتي صورت بأشكال وأنماط متعددة كما في وضعية الحمل والنمط الاقرب للواقع أن هذه الأشكال الأنثوية سواء أكانت من النوع البسيط الذيَ مثَّل الأنثى بدون الحمل أو الأثداء أو في الأشكال المركبة التي عبرت عن المرأة بوضعية الحمل ربما مثلت فكرة الخصوبة لصانعها أو ربما كان لها اعتبارات دينية ربما مَثَّلت الآلهة الأم والتي أستمر ظهورها بصورة مستمرة في الفترات اللاحقة أما بالنسبة للشكل الذكري فقد مثل مفتقراً للأرجل ومعبر عنه بواسطة جذع يبدو في محاولة الإشارة إلى الشكل الواقف . مثال واحد ذو أكتاف دائرية والأيادي ممددة على الجانبين ، ولكن بصورة خاصة وفي جميع الحالات الأيادي ممددة والأكتاف ذات حجم كبير[٥]. والسبب الذي دعا سكان هذه الحضارات الى عبادة الخصوبة يرجع الى انها كانت العامل الاساسي الذي يتحكم في حياتهم ما دامت الامطار وكميتها كافية لنمو الزرع فأن الانتاج الغزير لا يمكن ان يتحقق الا من خلال توفير الخصوبة في الارض تم العثور على اكثر من خمسة الاف نموذج لتماثيل صنعت من الطين في قرية جرمو وتمثل الاشكال لنساء واشكالا اخرى ممثلة لحيوانات مصغرة والتي

كان انتاجها مرتبطا بالخصوبة، كان شكل او نموذج الإلهة الام الاكثر شيوعا لترمز للخصوبة حيث تبدو المرأة من هذا النوع عارية مع تضخيم اعضائها الانثوية من هنا آمن الانسان القديم تحديدا في قرية جرمو شمالي العراق في فترة العصر الحجري الحديث بهذا النوع من العبادة، وجعلوا لكل ظاهرة طبيعية ألها يعبد، لم يعرف أنسان العصر الحجري الحديث زراعة البور وهو أن يترك الارض لمدة سنة حتى تستعيد خصوبتها، أستخدم الانسان في حدود الالف السابع قبل الميلاد مادة الطين في تصوير الهته التي تمنح أرضه الخصب والنماء فكانت الالهه الأم والتي دفنها الانسان داخل أرض الحقل لتزيد من خصوبة الارض وتزيد من أنتاجيه مزروعاته، صورت المرأة بعدة أنماط كان أبرزها شكل المرأة الحبلى التي تظهر جالسة والمعمولة من قطعة مستطيلة من الطين جميع تماثيلها فاقدة للرأس ربما لان الرأس في التماثيل الطينية المفخورة في الافران البدائية كانت النقطة الاضعف في التمثال، فضلا عن الاشكال الانثوية كانت هنالك ايضا بعض الاشكال الذكرية التي ارتبطت ايضا بفكرة الخصوبة والنماء[٦].

من هنا يظهر جليا أثر الفكر الديني في المجتمعات البدائية ونستأنس هنا برأي العالم ثوركيلد جاكوبسون بأن الدين في مرحلة العصر الحجري الحديث يعكس حالة القلق التي عاشها الانسان القديم لتأمينه قوته وقوت أهله وكان هدف هذه الطقوس المتمثلة بدفن تماثيل الالهة الام تأمين وجود القوى الاساسية للخصب والانتاج والطعام ومن بعدها شيدت لهذه القوى معابد لتسكنها الالهة كأعضاء أسرة بشرية[٧].

المحور الثاني/ الالهة ودورها في صاغة القوانين:-

تعود أولى المحاولات التشريعية في بلاد الرافدين الى عصر سلالة لجش الاولى والى حاكمها الكاهن (اوركاجينا)، وتوالت من بعده الشرائع القانونية والتي كان الهدف من ورائها تنظيم الحياة اليومية في المجتمع والنواحي الاقتصادية كما وتطرقت للأمور القضائية كالجرائم والعقوبات فضلا عن الحقوق والواجبات، ولا تكاد تخلو أي مقدمة أصلاح أو شريعة قانون من ذكر الالهة بأعتبارها هي المصدر الاول للقوانين وأن الالهة نفسها هي التي (أوحت) الى المشرع او الحاكم من تشريع قانونه، فجاءت القوانين لتؤكد على الدور الكبير الذي لعبته الالهة في تنظيم شؤون البشر والمجتمع المحكوم بقرارات الالهة. لعل من أقدم الامثلة على التشريعات القانونية هي جملة الاصلاحات الاجنماعية والاقتصادية التي أطلقها الحاكم أوركاجينا بوجه الطبقة السياسية الفاسدة والتي تعدت حتى على أملاك الالهة في المدينة، يذكر أوركاجينا الهه على أحدى المخاريط الطينية : "لـ (ننجرسو) فارس أنليل الاول، شيد أوركاجينا ملك لجش القصر وشيد له بيته وحفر للالهة أورنانشة قناتها المحبوبة وجعل مستودع مائها كأنه في وسط المحيط[٨].

يذكر الملك أورنمو (٢١١٣-٢٠٠٣ ق٠م) ملك سلالة أور الثالثة في مقدمة شريعته والتي دونت باللغة السومرية والتي تعتبر أقدم شريعة معروفة لدى الانسان، يذكر أورنمو كيف أن الالهان انو (اله السماء) والاله أنليل (سيد الريح) أعطوا ملوكية مدينة أور الى الاله القمر ننار، واستنادا الى اوامر الاله (ننار) اوامره التي تقضي بالعدالة وبعد ان قتل نمخاني امير لجش بقوة الاله ننار، أعاد قوارب بلاد مجان (حاليا عمان) الى الاله ،استطاع ان يوطد العادالة في البلاد وان يزيل البغضاء والظلم والعداوة[٩]، هنا يظهر دور الالهة في التفكير بسن القوانين وان الهدف منه ا توطيد العدل وأزالة البغضاء من بلاد سومر.

كذلك يظهر دور الالهة جليا في القانون الذي أصدره حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق٠م) أو ما يعرف بمسلة حمورابي، حيث يظهر فيها الملك حمورابي في قمة المسلة وهو يتسلم ادوات وشريط القياس من الاله شمش إله الشمس والحق والعدل في بلاد بابل، يظهر الاله شمش جالسا على عرشه يسلم بيده اليمنى الملك حمورابي الواقف امامه بخشوع ادوات القياس ليتسنى له بواسطة القياسات الدقيقة اعمار البلاد وتثبيت الملكية[١٠].

المحور الثالث: المعبد نواة المدينة ومركزها الروحي:-

بعد ظهور القرى الزراعية الاولى ظهرت الحاجة لتأسيس مكان خاص يأوي صنم المعبود ويجمع المتعبدين في مكان واحد، يستدل من نتائج التنقيبات الاثرية في العراق بأن اولى اشكال المعابد بالمفهوم الديني الابتدائي قد ظهر في العصر الحجري الحديث وكان المعبد أول المباني العامة التي ظهرت في هذا في هذا العصر وازدادت اعدادها بأزدياد الالهة مع الوقت، ولعل أقدم الامثلة من معابد هذا العصر معبد تل الصوان (يقع هذا الموقع شرقي نهر جلة قرب مدينة سامراء الحالية)، ضم هذا المعبد ثلاثة تماثيل لما يسمى (الالهة الام) عثر عليها في أرضيات المعبد العائدة للطبقات الاثارية الاولى والثالثة، تماثيل الالهة الام اختلفت في مادة صناعتها في تل الصوان أذ انها كانت معمولة من مادة الرخام البيضاء وكانت عيون التمثيل محززة ومطعمة بالاحجار، وكان البناء مصنوع من اللبن ويمثل أقدم معبد في تاريخ بلاد الرافدين[١١].

توالت المعابد بالظهور في العصور التالية الا انها أمتازت بحسن البناء وتطور مواد العمارة وبزخرفتها خاصة في عصر العبيد في أواسط الالف الخامس ق.م ولعل من أجمل الامثلة على المعابد والتي تؤكد على كونها نواة المدينة بتوسطها وبكونها مركز الاشعاع الفكري والحضاري في المدينة ما نجده قائما في مدينة الوركاء السومرية، أذ يتوسط معبد الالهة عشتار (أينانا) ومعبد الاله أنو مركز المدينة حتى يقسمانها الى حارتين رئيسيتين توزعت بينهما بنايات المدينة أو ما عرف بحارتي انانا وانو، الموطن المقدس لانانا عبارة عن مجاميع عمارية معقدة وبأبعاد ٧٠ في ٣٠ متر وزواياه تتجه نحو الجهات الاربع

الاصلية[١٢]. هذا واعتبر بناء المعابد في العراق القديم من الاعمال المقدسة التي تتطلب القياك ببعض الطقوس الدينية من قبل الكهنة، وكان تشييد المعابد وصيانتها من اهم واجبات الملك الدينية فهو الذي يتفقد معابد البلاد في زيارات خاصة للوقوف على ما تحتاج اليه من اصلاح واعادة بناء وكان الملوك يتفاخرون ببنائهم المعابد ويقيمون الافراح بتلك المناسبات وكانوا يختارون للمعبد أطهر بقعة ويقومون بنقل الرمل الابيض النظيف الناعم لاجل اسس المعبد على ان يكون ذلك اليوم يوم فرح وسرور ولا يظلم فيه احد[١٣].

المحور الرابع: التفويض الالهي في الحكم:-

كانت الملوكية في بلاد ما بين النهرين سمة من سمات الحضارة لا سيما انها كانت احدى الهبات التي حصلت عليها الالهة عشتار بغتة من الاله انكي (أله الحكمة وحاكم معبد الابسو) والملوكية هي واحدة من النواميس الالهية المتصلة بالتحضر والتمدن والصنائع والحرف والمهن والشعر وغيرها، أستنادا الى ما جاء في ما يعرف بجداول الملوك السومرية بأن الملكية هي صفة الهية مقدسة من السماء كما يتبين من النص التالي:-

"هبطت الملوكية من السماء فكانت مدينة أريدو مركز للملوكية وحكم في أريدو ألولم ملكا مدة ٢٨٠٠٠ عام ومن بعده حكم الكار مدة ٣٦٠٠٠ عام، ثم تركت أريدو وأنتقلت ملوكيتها الى بادتبيرا وفيها حكم اينمنلو-أنا ومن بعده اينمنكال"

بذلك تنقلت الملوكية (nam-lugal) ما بين خمسة مدن حتى الحادثة الكونية (الطوفان) أذ أعيدت الملكية مرة اخرى الى السماء ثم نزلت في مدينة كيش من بعد الطوفان[١٤]. لذا فأن نظام الملكية وشاراتها كانت بالنسبة للسومريين وخلفائهم موجودة وبشكل مستقل من قبل الملوك البشر ونقرأ في ملحمة أيتانا:-

"في ذلك الوقت لم يكن قد لبس التاج....وكان الصولجان ورباط الرأس والتاج والعصا مودعة في السماء أمام الاله انو، ثم هبطت الملكية من السماء"

كان الملك نفسه ينتخب من قبل الالهة ويقلد صفات الملكية من قبلها، ومنذ وقت مبكر كان الاله انليل نفسه وهو اله البلاد القومي يدعى (ملك البلاد) ثم عرف فيما بعد بملك الالهة حتى في بلاد اشور، بهذا كان الملك من وجهة النظر الدينية بالدرجة الاولى الواسطة بين الالهة والناس فكان يمثل الناس أمام الالهة وبالمقابل فقد كان الواسطة التي تنظم الالهة من خلاله شؤون الدولة والناس[١٥].

المحور الخامس: الزواج المقدس وتمثيل الالهة:-

لعل أشهر زوجين من الالهة في مجمع الالهة القديمة هما الالهان (عشتار- أنانا) فهي الهة الحب والحرب وزوجها الراعي (دموزي- تموز)، شهرة هذين الالهين ربما ترجع لما حيك ونسج حولهما من أساطير مثلت علاقتهما الزوجية التي يمكن أن توصف بأنها علاقة

حصرت بطابع الهي والتي تخللتها ظروف ذات ملامح بشرية خالصة مثل مشاعر الحب والبغض والكراهية وربما مثلت علاقتهما جانبا من الواقع الحياتي الذي عاشته نساء ذلك العصر خاصة في المعابد، خاصة وان الالهة عشتار كانت قد عرفت بكثرة عشاقها وحقيقة أنها لم تستقر على زوج واحد وبذلك فهي ربما مثلت تطورا لتلك الالهة الطوطمية القديمة التي ظهرت في فترة العصر الحجري الحديث وعرفت بالالهة الأم، عدت الالهة عشتار واحدة من أهم الالهات في بلاد وادي الرافدين على مر العصور الزمنية وأن اسمها بدوره يمكن ان يكون بدوره مشتقا من المقطعين السومريين (نن – انا) أي سيدة السماء، العلامة الدالة على ألوهيتها كانت (الحلقة) وخاصة في المشاهد الوركائية القديمة، كانت عشتار أبنة الاله انو ومركز عبادتها في مدينة الوركاء اذ ظهرت مجموعة من المعابد عدت من أهم المباني العمرانية متزامنة مع بدايات ظهور الكتابة والاختام الاسطوانية(١٦).

على الرغم من قصة العشق التي أبتدأت بين عشتار وتموز ألا انها أنتهت شأنها شأن كل جميل نهاية مأساوية بعد نوزل عشتار الى عالم اللارجعة، العالم السفلي الذ تحكمه اختها الالهة ايرشيكال في رغبة منها لأطلاق سراح الموتى، فبعد وصولها وعبورها البوابات السبعة المؤدية لمملكة أختها نظر أليها إلهة الايجيجي ورمقوها بنظرة الموت وحولوها لجثة هامدة، بعد مضي ثلاث أيام على موت عشتار قام وزيرها (نن– شوبر) الذي أستعان بأنكي لأنقاذها من عالم الاموات، فخلق أنكي الهين أثنين لا جنس لهما وأستطاعا من أعادة أنانا الى الحياة بعد أن صبوا عليها ماء الحياة وأطعموها خبز الحياة، ألا ان شياطين العالم السفل تبعوها وطالبوا ببديل عنها في عالم اللارجعة فما كان من عشتار الا ان ضحت بزوجها تموز بعد أن رأته نائما غير مكترث بموتها، وأخذوا تموز بديلا عنها فكانت تلك نهايته، ألا ان ضرورة وجود تموز على قيد الحياة لديمومة الحياة، فما كان من أخته (كشتن– انا) بدا من أن تنزل بدلا عنه لستة أشهر لغرض اتمام مراسم الزواج المقدس بينه وبين عشتار(١٧). بهذا فأن الزواج المقدس هو أحتفال ديني يتضمن ترتيل الاناشيد والقصائد وكانت هنا الكاهنة العليا تقوم بدور الالهة عشتار ويقوم بدور الاله تموز اما الملك أو الكاهن وكان هذا الاحتفال يتضمن طقوسا تنتهي بزواج الملك بالكاهنة محاكاة لزواج اله الخصب من الهة الخصب وهذا الامر يركز على أستمرارية فكرة الخصوبة وأثرها في المجتمعات القديمة سواء في العصر الحجري الحديث أو في عصر فجر السلالات السومرية أذ أن الانتاج الزراعي الكافي وديمومته كان وما يزال يمثل عنصر قلق كبير عند المجتمعات الزراعية[١٨]

المحور السادس: أثر الفكر الديني في الدفن وعقيدة ما بعد الموت:–

يعد الدفن من أقدم العادات البشرية المكتسبة في كيفية التعامل مع جثة الانسان المتوفى، ذكر القران الكريم في سورة المائدة اقدم حادثة قتل عندما أقدم قابيل على قتل أخيه

هابيل ووقوفه عاجزاً عن دفن جثة أخيه حتى بعث الله غرابا يعلمه كيف يواري سوأة أخيه، كشفت القبور والمدافن عن كثير من معتقدات وعادات الانسان القديم منذ العصر الحجري القديم وحتى فترات متأخرة من تاريخ العراق، كان للفكر الديني الاثر الكبير أن لم يكن الاثر الاول و الاوحد في كيفية دفن جثة المتوفى وشكل القبر أو اللحد الذي تطور من شكله البسيط الذي كان عبارة عن منخفض بيضوي الشكل في سطح الارض الى شكله الاكثر تطورا بهيئة غرف مبنية مقببة من الاجر. فضلا عن الهدايا الجنائزية التي كشفت عن أيمان وعقيدة بحياة ما بعد الموت لدى الاقدمين لذلك وضعوا حاجيات وممتلكات الميت بالإضافة الى ما يحتاج اليه من أدوات وأواني كأقداح الشرب وصحون الطعام، تلك الهدايا الجنائزية تطورت في العصور التاريخية الى وضع الاختام الاسطوانية او ما يدل على حرفة وصنعة المتوفى[١٩]. عثر في كهف شانيدار على هياكل عظمية لانسان نياندرتال ما يمكن تسميته بـ (مدفن الزهور) على مسافة خمسة عشر مترا من مدخل الكهف وبعمق سبعة امتار ونصف، كانت الهياكل قد دفنت في لحود حجرية بطول ١٥٠ سم وعرض ٩٠ سم وتمتد من الشمال الى الجنوب وكان أتجاه الرأس يقع الى جهة الغرب، أحد الهياكل يعود لرجل بالغ أما الهيكلين الاخريين يعودان لأنثيين بالغتين، فضلا عن هذه الهياكل عثر على هيكل عظمي لطفل يقع اسفل هيكل الرجل البالغ، من خلال وضعيات الدفن يبدو ان هيكل الطفل قد وضع اولا ومن ثم هيكلي الانثيين والرجل البالغ[٢٠]. تنوعت طرائق الدفن في العصور المتلاحقة، مثلا كان الدفن في العصر الحجري الحديث يتم تحت أرضيات السكن فيما دفن الاطفال داخل جرار فخارية في العصر الحجري المعدني وكانت الوضعية المفضلة للفن ما يسمى بوضعية القرفصاء الشبيه بالوضع الجنيني وبرمزيته التي تمثل عودة الانسان للأرض. من مراسيم الدفن في عصر فجر السلالات السومرية كان الضرب على الآلات الموسيقية الجلدية فضلا عن تقديم القربان من أجل الميت وتقديم وجبة طعام خاصة بالمناسبة وكان أقارب الميت بالذات يتوشحون بثياب الحداد ويغطون رؤوسهم بما يشبه الاكياس ويمشون حفاة الاقدام ويحملون الميت بأنفسهم الى قبره حيث يوضع بملابسه وحليه في جرة كبيرة او جرة مزدوجة على شكل برميل او في داخل قبر مشيد من الطابوق[٢١]، وضعية الجسد عند الدفن كانت القرفصاء بـ ثني الركبتين الى الصدر وتوضع الى جانب الهيكل جميع ما يحتاجه الميت (في عالم ما بعد الموت) مثل ختمه الاسطواني والقدح الخاص بالشرب الذي كان يوضع عادة بجانب اليد اليمنى فضلا عن بعض المؤن من حبوب وفواكه وخضروات كما توضع الاباريق والجرار الفخارية خارج القبر حتى يمكن تغيير مائها، ثم بعد ذلك تبدأ عمليات ومراسيم الزيارة المنتظمة للقبر من قبل اهل المتوفى وتكون مصاحبة بتقديم ووضع الطعام والماء[٢٢]، المقابر في مدينة لجش يمكن أن تصنف الى ستة

انواع اولها الحفرة البسيطة في الارض، القبر ذو الشكل الجرسي، القبر على شكل البرميل، المقبرة المستطيلة المشيدة من اللبن (المشابهة لمدافن عصر العبيد)، المقبرة ذات القبة المشيدة بالطابوق واخيرا المقبرة المشيدة بالطين المشوي او ما يعرف بالطين المزجج[٢٣].

المحور السابع: تعدد الالهة وعبادة الظاهر الطبيعية:-

مثل الدين محورا أساسيا في معتقدات بلاد وادي الرافدين القديمة ذلك لأنهم امنوا بأن الالهة أثرت في كل نواحي حياة الأنسان، كانت الديانة متعددة في بلاد وادي الرافدين، عبدت المجتمعات عدة الهة رئيسية فضلا عن المئات من الالهة الثانوية، وفي كل مدينة عراقية قديمة سواء أكانت سومرية أم أكدية، كان لها الهها الخاص بها والحامي لمدينتها[٢٤].

امن السومريون بأن هذا الكون العظيم كان له خالقا وأن الالهة مثلت السببية في نشأة الكون وتنظيم شؤونه، هذا ما يظهر جليا في أسطورة الخليقة والتي تبدأ بعبارة "حينما في العلى...لم يكن هناك شيء سوى العماء"، وأن الكون نفسه تألف من أمتزاج عنصريين أحدهما مؤنث وهي تيامة والاخر مذكر أبسو ونشأ من أتحادهما الكون الذي نعرف وكذلك نشأت الالهة الاولى من أتصالهما مصل لخمو ولخامو، أنشار وكيشار ،انو وانليل[٢٥].

ربما يعود السبب في عبادة الهة متعددة أو ما يسمى احيانا بـ "الشرك"، الى حقيقة أن الانسان القديم حاول أيجاد تفسيرات للظواهر الطبيعية أو الاجرام السماوية التي مثلت قوة وطاقة كبيرة لا يمكن للأنسان القديم فهمها، من هنا نجد أصداء هذه التفسيرات ومحاولة أيجاد الخالق الفعلي للكون من خلال القران الكريم نفسه في سورة الانعام (**وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ** (76) **فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ** (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(79) [٢٦].

لذا خصص العراقيون القدماء الها خاصا بالسماء وهو (انو) وحاولوا ايجاد كائن يشغل الفراغ بعد فتق السماء فكان الاله أنليل (أله الهواء) الذي يملىء الحيز ما بين السماء والارض، ومن ثم كان هنالك أله الحكمة والمياه الجوفية (أنكي) المعروف بمواقفه الطيبة مع البشر في حادثة الطوفان، وكذلك عشتار وتموز وزواجهما الالهي لتحقيق الخصب والنماء والاتيان بفصل الربيع وعودة الخضرة الى الارض فضلا عن الالهة الأخرى الكثيرة والتي لا يتسع المجال لذكرها.

الاستنتاجات : أستخلصت الدراسة للاستنتاجات التالية:

- كان للدين الاثر الكبير ان لم يكن الاثر أو العامل الاساسي في نشوء الدين عند المجتمعات الرافدينية القديمة في نشأتها الاولى المعتمدة على النمط الاقتصادي الزراعي الجديد واحتياجهم لاله خصب يؤمن المحصول الكافي من الزراعة.
- كان محور عبادات المجتمعات القديمة يدور حول الالهة المعبودة التي مرت بمراحل الحيوية والطوطمية وعدوا الهتهم كائنات سماوية تتسيد القوى في الكون وكانوا يعتقدون بأن هذه الالهة قادرة على التأثير في مظاهر الطبيعة والتي هي من اصول عباداتهم وتسخيرها على مبدأ التشبيه.
- عبد العراقيون القدماء الهة كثيرة وأعطوها صفات التقديس الالهي ذلك بأن الالهة لها قوى خارقة للطبيعة وكذلك السيطرة الابدية، كما ولم يعرف العراقيون القدماء التوحيد المطلق للاله الا انهم نعتوا كبير الهتهم بـ رب الارباب أو الاله الاعظم وهو ما يعرف بالتفريد.
- جسد العراقيون القدماء الهتهم بصور البشر وأحيانا بمخلوقات مركبة تجمع بين البشر والحيوان وصوروا لها بيوتا أي المعابد وكان جوهر عباداتهم مستمد من فكرهم الديني فألزموا أنفسهم بطقوس امنوا في اداء واجباتها جلبا للخير والعطاء ودفعا للمكروه.
- كانت العبادات مقسمة الى قسمين الاول عام يقوم به الفرد لتحقيق غاية الخلق من وجوده والثاني خاص لدفع المكاره والتي اشتملت على طقس خاص يؤديه المتعبد في البيت.
- قام العراقيون القدماء بتقديم القرابين والاضاحي التي تلخص اقتناعهم بالهيمنة الالهية على كل شيء.
- امن المتعبد العراقي القديم بان الالهة تسمعه وتشعر به فيخاطبها بما يكنه في قلبه لتبقى راضية عنه.
- اقام العراقيون القدماء شعائر الصلاة حيث يقدم المتعبد نفسه ويركع امام تمثال الاله ويرفع يديه بالدعاء وتارة يرفع يده اليسرى الى الاعلى واليد اليمنى يضعها على القلب.
- كان للكهنة الذين يقومون بخدمة المعبد نصيب كبير من الصدقات والقرابين المقدمة الى معبد الاله والاموال وما يقدم من نذور.
- أن اول شكل من أشكال وظيفة الحكام كانت قد أنيطت الى الكهنة بأعتبارهم ممثلي للالهة على الارض وممثلين للبشر امام الالهة، وأن اقدم صفة للحكام عرفت بالـ أين أي الحاكم الكاهن ومن ثم تطور وظيفة الكاهن الى أن أصبح أميرا أو حاكما للمقاطعة.
- كانت الالهة مصدرا للتشريع الالهي وسن القوانين التي نظمت حياة البشر وضمنت الحقوق والواجبات التي كان على الفرد الالتزام بها.

- كان للالهة الدور الكبير في صياغة حياة ما بعد الموت والطقوس الواجب تأديتها لضمان راحة الميت الابدية في القبر من هدايا جنائزية فضلا عن الحرص بدفن الميت في مقابر الالهة والتي كانت لها خصوصية عن بقية الاراضي مقابل رسوم واجور مادية كبيرة تؤدى لمأمور المقبرة.

قائمة المصادر:

١- القران الكريم،سورة الانعام.

٢- أيان تاتير سول، العالم من البدايات حتى ٤٠٠٠ قم، ترجمة د. حازم نهار، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار كلمة، ٢٠١١.

٣- أنطون مورتكات، الفن في العراق القديم، ترجمة عيسى سلمان وطه التكريتي، بغداد، مطبعة الاديب، ١٩٧٥.

٤- سامي سعيد الاحمد، المعتقدات الدينية في العراق القديم، بيروت، المركز الاكاديمي للابحاث، ٢٠١٣.

٥- صموئيل كريمر، السومريون تاريخهم حضارتهم وخصائصهم، ترجمة الدكتور فيصل الوائلي، بيروت، مكتبة الحضارات، (د.ت).

٦- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بيروت، دار الوراق، ٢٠٠٩.

٧- فاضل عبد الواحد علي، أناشيد الزواج المقدس، مجلة سومر، العدد٣٤، ١٩٧٨.

٨- فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، سلسلة الكتب الحديثة، ١٩٧٣.

٩- فوزي رشيد، حضارة العراق، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٥.

١٠- فوزي رشيد، الفكر الديني القديم، بغداد ١٩٩٢، دار الشؤون الثقافية.

١١- عادل فائق رشيد، الفترات الانتقالية في قرى ومواقع عصور ما قبل التاريخ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب- جامعة بغداد، ٢٠٠٣.

١٢- عادل فائق رشيد، المدافن والمقابر في العراق القديم، مجلة الجامعة العراقية، العدد ٣٤، ج١، ٢٠١٥.

١٣- هاري ساكز: عظمة بابل، ترجمة دكتور عامر سليمان، جامعة الموصل، ١٩٧٩.

المصادر الاجنبية:

1- Solieki, Ralph (Science Magazine)" Shanidar IV, Flower Burial in Northern Iraq", Vol 190, No4, 1975

مصادر الانترنت:

https://www.historyonthenet.com/mesopotamian-religion/
http://www.uobabylon.edu.iq/uobColeges/ad_downloads

هوامش البحث :

[١] من المعروف أن أربعة عصور جليدية مرت على الكرة الارضية وهي كنز، مندل، رس، فيرم.

[٢] طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بيروت، دار الوراق، ٢٠٠٩، ص ٢٨.

[٣] أيان تاتير سول، العالم من البدايات حتى ٤٠٠٠ قم، ترجمة د. حازم نهار، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار كلمة، ٢٠١١، ص ١٩٩.

[٤] هاري ساكز: عظمة بابل، ترجمة دكتور عامر سليمان، جامعة الموصل، ١٩٧٩، ص ٢٨.

[٥] عادل فائق رشيد، الفترات الانتقالية في قرى ومواقع عصور ما قبل التاريخ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب– جامعة بغداد، ٢٠٠٣، ص ٨.

[٦] فوزي رشيد، حضارة العراق، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٥، ص ١٤٥.

[٧] سامي سعيد الاحمد، المعتقدات الدينية في العراق القديم، بيروت، المركز الاكاديمي للابحاث، ٢٠١٣، ص ١٢.

[٨] صموئيل كريمر، السومريون تاريخهم حضارتهم وخصائصهم، ترجمة الدكتور فيصل الوائلي، بيروت، مكتبة الحضارات، (د.ت)، ص ٤٥٥.

[٩] فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، سلسلة الكتب الحديثة، ١٩٧٣، ص ١٢.

[١٠] فوزي رشيد، المصدر نفسه ص٨١.

[11] http://www.uobabylon.edu.iq/uobColeges/ad_downloads/6_1509_118.pdf

[١٢] أنطون مورتكات، الفن في العراق القديم، ترجمة عيسى سلمان وطه التكريتي، بغداد، مطبعة الاديب، ١٩٧٥، ص ١٢.

[١٣] فوزي رشيد، الفكر الديني القديم، دار الشؤون الثقافية ،بغداد ١٩٩٢، ،ص ٣٣.

[١٤] طه باقر، مصدر سابق، ص ٣١٩.

[١٥] هاري ساكز، مصدر سابق، ص٤١٤.

[١٦] أنطون، مورتكات،مصدر سابق، ص ١٩.

[١٧] المصدر السابق نفسه، ص ٢٩٢.

[١٨] فاضل عبد الواحد علي، أناشيد الزواج المقدس، مجلة سومر، العدد٣٤، ١٩٧٨.

[١٩] عادل فائق رشيد، المدافن والمقابر في العراق القديم، مجلة الجامعة العراقية، العدد ٣٤، ج١، ، ٢٠١٥، ص٣٨٦.

[20] Solieki, Ralph (Science Magazine)" Shanidar IV, Flower Burial in Northern Iraq", Vol 190, No4, 1975, P 880

[٢١] المصدر نفسه، ص ص ٤٣–٤٤.

[٢٢] المصدر نفسه، ص ٤٤.

[٢٣] المصدر نفسه، ص ٤٥.

[24] https://www.historyonthenet.com/mesopotamian-religion/

[٢٥] فوزي رشيد، الفكر الديني القديم، مصدر سابق، ص١٦.

[٢٦] سورة الانعام، الاية ٧٩.

adel.faiq@gmail.com

Abstract

Religious ideology have had a major effect upon ancient Mesopotamian societies , despite the oldest writing attempts which date back to the mid of the fourth Millennium B.C were its tablets mentioned the oldest Gods, But we found out that the earliest testimonials of religion effect date back to those early agricultural families that practiced farming and domesticated animals, within the Neolithic period 6750 B.C, besides, religious ideology was the main factor behind establishing and creating laws and that almost none of the known Codes lacks the mention of Gods and that they "Gods" were attributed for legislating the laws.

The Study is divided on number of axis, the first is centered around the idea of ground fertility and the role of the so called (Mother Goddess) in increasing the amount of crops, the second axis come to confirm the role of Gods in creating laws, The Third enhanced the idea of the temple being the city's spiritual center and its effect in establishing cities, forth axis is devoted for the theory of divine kingship and that it is Gods who decide who represents it on earth, fifth axis dealt with Sacred Marriage or so known in Latin (Hieros Gamos) for the continuity of Spring, sixth axis debated burying practice , the after death creed and the Gods of the underworld, The final axis debates the occurrence of polytheists and its interpretations of natural phenomenon worshipping.